دور المنهج التفسيري في إكتناه مقاصد القرآن

المدرس الدكتور
لمياء مهدي سعيد الشمرتي
جامعة الكوفة ـ كلية القانون

The role of interpretation approach in interpreting the Quranic verses

Lect. Dr.
Lamyaa Mehdi Sayeed Al-Shimirti
Faculty of law University of Kufa

الملخص:-

يمثل المنهج الاداة المعرفية المهمة التي تعين المفسر على ممارسة جهده التفسيري المتمثل بالكشف عن المقاصد القرآنية، وان افضل منهج من شأنه تحقيق هذه الغاية هو المنهج الذي يمزج بين النقل والعقل، فضلا عن طهارة المفسر ونقاء باطنه الذي يمكنه من الغوص في المعارف القرآنية، والكشف عن الحقيقة القرآنية، بهدف ايصال الانسان الى التوحيد والايمان باليوم الاخر.

الكلمات المفتاحية: الله – القرآن – المنهج التفسيري – المقاصد – المفسر – المعارف القرآنية – التوحيد – اليوم الآخر.

Abstract:-

The method represented the importance knowledge tool which enable the interpreting to discover the many importing aims of Holy Quran. So the butter method can get this goal is that whom mixing between transport and mind besides the honest of the interpreting which made him to reach Quran deep meaning and it actual to reach taoheed and faith the another day.

Keywords: God, Quran, Explanatory Method, Maqassed, Explanatory, Quranic Knowledge, Tawheed, The Last Day .

المقدمة:

هنالك اتجاه لدى بعض المفسرين يؤكد على ضرورة أن يركز المنهج التفسيري على كشف المقاصد القرآنية، فالتفسير عندهم لا يعدو كونه وسيلة للوقوف على مقصد الكتاب، بحيث تكتسب كل آية من آيات القرآن الكريم معناها عبر إدراك المقصد العام لكتاب الله تبارك وتعالى.

ولما كان التوحيد يشكل أهم مقاصد القرآن، فانه ينبغي على المفسر أن يحسن اختيار المنهج الذي من شأنه اكتناه ومعرفة هذا المقصد، كون المنهج معني بالتفسير الذي يعد من أهم وظائفه بصفته حقلا معرفيا مستقلا.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث الحاضر على الصعيد النظري لكون القرآن الكريم كان وما يزال المصدر الرئيسي من مصادر الفكر الاسلامي، سواء على مستوى الاسس والمبادئ، أم على صعيد التفاصيل التي لا يخلو هذا الكتاب الكريم من موقف منها، والتفسير هو عملية استنطاق - كما تعبر النصوص الروائية - لهذا الكتاب وجلاء مقاصده الاساسية من خلال المنهج المتبع في عملية الاستنطاق، أي أن ثمة وشيجة وثيقة بين المنهج والتفسير، ومن هنا فان التركيز على هاتين المفردتين من شأنه فتح نافذة جديدة للتعامل مع القران، الامر الذي يمنح البحث في هذا المجال أهمية خاصة.

الهدف من البحث:

الوقوف على أهمية المنهج التفسيري في الكشف عن معاني القران الكريم ومقاصده كوظيفة من الوظائف التي يقوم بها المنهج، فضلا عن التعرف على أبرز المناهج التفسيرية، والوقوف على أهم المقاصد القرآنية.

اشكالية البحث:

إن الوظيفة التي ينبغي أن يقوم بها المنهج التفسيري تتمثل بالكشف عن معاني القران ومقاصده، وبخلافه يخرج من دائرة المنهج والتفسير اذا لم يحقق هذه الغاية، فالتفسير انما

يعني الغوص في معاني القران، وبيان المقاصد.

فرضية البحث:

إن المنهج يبدو مرادفا للتفسير، ومن أهم وظائفه سبر غور معاني القران والوقوق على المقاصد القرآنية، وان التفسير يفقد هذه الصفة اذا استغرق في الظاهر القرآني دون الغوص في معاني القرآن وكشف مقاصده.

وإن أفضل منهج تفسيري يمكنه تحقيق هذه الغاية القرآنية هو المنهج الذي يجمع بين النقل والعقل، الى جانب ضرورة استفراغ المفسر ما بوسعه لتزكية نفسه وتطهير باطنه بغية الوقوف على حقائق القران.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج التحليلي، من خلال عرض أهم المناهج التي تولت وظيفة التفسير، ومن ثم تسليط الضوء على المعنى المراد بحقيقة التفسير، بهدف التوصل الى المنهج الذي ينبغي اعتماده من أجل تحقيق غاية التفسير.

هيكلية البحث:

انتظم البحث بعد المقدمة في مبحثين، لكل مبحث مطلبين، فضلاً عن الخاتمة والاستنتاجات، وعلى النحو الآتي:

المبحث الاول: الاطار المفاهيمي للمنهج التفسيري

المطلب الأول: المنهج والتفسير

المطلب الثاني: مناهج التفسير

المبحث الثاني: وظائف المنهج في معرفة المقاصد القرآنية.

المطلب الأول: التفسير ومقاصد القرآن.

المطلب الثاني: وظائف المنهج التفسيري.

المبحث الأول

الاطار المفاهيمي للمنهج التفسيري

سنسلط الضوء في هذا المبحث على الاطار النظري والمفاهيمي لكل من المنهج والتفسير، لنقف من خلال ذلك على مفهوم المنهج التفسيري، ومن ثم نتطرق الى أبرز مناهج التفسير التي يمكن من خلالها التوصل الى معرفة واكتناه المقاصد القرآنية، وذلك من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول

المنهج والتفسير

وردت عدة تعاريف لمفردة المنهج، منها ان المنهج هو الطريقة التي يتم من خلالها التوصل الى حقيقة معينة[١]، كما يعبر المنهج عن الاجراء المستخدم في البحث العلمي والمعرفي بهدف بلوغ الغاية المطلوبة، وذلك من خلال الترتيب الصائب للعمليات العقلية بغية الكشف عن الحقيقة[٢].

وتبدو أهمية المنهج في العلوم الانسانية على خلفية ما يقوم به من وظيفة في التعامل مع الظواهر والوقائع بهدف الوصول الى النتائج المعرفية المطلوبة... وهذا ما ينطبق على الدين، لما للمنهج في هذا المجال من دور في الكشف عن مراد الله تعالى، ولما يشتمل عليه النص الديني من تعاليم تتكفل بتحقيق سعادة البشر في الدارين، الامر الذي يكشف عن مدى الترابط بين المنهج والنص الديني لدى الباحث[٣].

ويخلص أحد الباحثين المعاصرين[٤] الى أن ثمة مواصفات تشكل بمجموعها موجهات معرفية وقيمية ومقياسية للبحث المنهجي، تضمن صوابيته في التعامل مع النص الديني من قبيل: التعقل، التدبر، التأمل، التجربة، الحياد، النزاهة، قبول الآخر، التعددية، الشمولية، و الأخذ بالضرورات الزمانية والمكانية... ذلك لان المنهج شأن بشري ينشأ عن تفكر العقلاء وتأملاتهم وتجاربهم، مع ضرورة التزام الباحث بالضرورات الأخلاقية والمعيارية والموضوعية والنفسية التي حث الدين الباحث على مراعاتها والالتزام بها.

والذي نريد أن نخلص اليه مما تقدم بخصوص المنهج ان المناهج التي عليها السلف في

التعامل مع النصوص القرآنية لا تبدو مستعصية على المراجعة وإعادة القراءة على ضوء ظهور الأدوات المعرفية الجديدة، فضلاً عن مستجدات عنصري الزمان والمكان وتطور الحاجات المعاصرة.

وعلى غرار المنهج فإن التفسير اتخذ ايضاً عدة تعاريف منها - والذي نعتبره الاقرب لعنوان البحث الحاضر، ان التفسير هو بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها وغاياتها ومدلولاتها(٥).

واذا ضممنا تعريف المنهج الى تعريف التفسير على ضوء ما تقدم سنتوصل الى ان المراد بمنهج التفسير، هو الطريقة أو الاجراء المستخدم من أجل الوصول الى معرفة المقاصد القرآنية وكشف معاني الآيات القرآنية.

وتأسيساً على هذا التعريف لمنهج التفسير الذي يرتكز على عنصري (الكشف والبيان) فإن ثمة افتراض، بان النص القرآني يختزن درجة من الغموض والابهام والمقاصدية، وان وظيفة المنهج التفسيري تكمن في إجلاء هذا الغموض وذلك الابهام والوقوف على هذه المقاصدية.

ومن هنا فالتفسير لا ينبغي أن يقتصر على بيان الظاهر من الالفاظ، ولابد أن يتوغل المفسر في عمق المعاني المكنونة وراء الألفاظ، فوجهة المفسر هي الوصول الى كنه المعنى دون الاكتفاء بظاهر الألفاظ(٦).

يبد ان هذا الاتجاه في النظرة الى التفسير الذي يقضي بالتوغل في عمق القرآن والغوص في بحر معانيه، يواجه إشكالية كبيرة تتمثل في إمكانية الوقوع في دائرة (التفسير بالرأي) الذي ورد النهي عنه في النصوص الدينية الروائية، كقول النبي الاكرم ﷺ" من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"(٧).

وقد اتفق العديد من مفسري الفريقين، على ان النهي الوارد في الروايات بخصوص التفسير بالرأي، إنما يختص بآيات الاحكام التي لا يدرك علمها إلا من خلال بيان النبي ﷺ، فقال أحدهم بهذا الخصوص: (وهذه الاخبار شاهدة على صحة ما قلنا من ان ما كان من تأويل أي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان الرسول أو بنصبه الدلالة عليه، فغير

جائز لاحد القيل فيه برأيه)[٨].

ما تجدر الاشارة اليه أن هنالك علاقة وطيدة بين المنهج والتفسير، تبدو خطورتها لدى بعض مفسري القرآن[٩] في ان التفسير بالرأي انما يتجه الى المنهج، وانه أساساً مقولة في المنهج وطريقة التفسير، وليست له من علاقة بالنتائج، ليقول بهذا الشأن: ان التفسير بالرأي المنهي عنه أمر راجع إلى طريق الكشف دون المكشوف، وان النهي الوارد يتجه لتفهم النص القرآني وكلام الله على نحو ما يتفهم به كلام غيره، وان كان هذا النحو من التفهم ربما أصاب الواقع.

وعلى هذا الأساس ندرك أهمية المنهج الذي يعتمد عليه الباحث في التعاطي مع القرآن وتفسيره بغية التوصل الى المعاني الحقيقية والوقوف على المقاصد القرآنية، وسنفرد البحث القادم لتناول مناهج التفسير التي من شأنها تحقيق هذه الغايات.

المطلب الثاني

مناهج التفسير

أولاً: التفسير النقلي.

يعد تفسير القرآن الكريم من مهمات النبي الاكرم ﷺ - في الاساس - وذلك بحسب تصريح القرآن الكريم ﴿...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١٠].

واستناداً الى هذه المهمة النبوية فان تفسير القرآن الكريم لم يكن في البداية سوى شعبة من الحديث بصوة أو بأخرى، وكان الحديث هو الاساس الوحيد تقريباً، مضافاً الى بعض المعلومات اللغوية والأدبية والتاريخية[١١].

ومن هنا فإن أول منهج تفسيري شاع استخدامه لدى المسلمين هو (المنهج النقلي) ويرجع ذلك الى عدة أسباب أهمها:

أ - شيوع الامية لدى العرب، لان الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم... ومن يؤخذ عنهم، فهو مما تلقوه من النبي ﷺ أو ممن يسمعه منهم، وكانوا يسمون القراء، أي الذين يقرأون الكتاب، لان العرب كانوا أمة أمية، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم[١٢].

ب - النزعة التوفيقية لدى المفسرين الاوائل التي أدت بهم ألا يتخطوا دائرة المنقول.

ت - تأكيد الروايات على التقيد بالمأثور في عملية التفسير، حتى صرح أحد أبرز مفسري الشيعة الامامية قائلا: (واعلم ان الرواية ظاهرة في اختيار أصحابنا بان تفسير القرآن لا يجوز الا بالأثر الصحيح عن النبي ﷺ وعن الائمة عليهم السلام)[١٣].

ويفهم مما تقدم ان المراد بمنهج التفسير النقلي (الروائي) هو المنهج التفسيري الذي ينطلق من تفسير القرآن بالسنة التي تتضمن قول المعصوم وفعله وتقريره في ايضاح معاني الآيات القرآنية وما تنطوي عليه من مقاصد.

ما تجدر الاشارة اليه ان علماء التفسير قسموا التفسير النقلي الى أربعة أقسام هي:

- تفسير القرآن بالقرآن.
- تفسير القرآن بالسنة.
- تفسير القرآن بأقوال الصحابة.
- تفسير القرآن بأقوال التابعين[١٤].

والذي يبدو للباحثة انه ليس من شأن هذا المنهج التفسيري تحقيق الوظيفة التفسيرية في بيان معاني القرآن والكشف عن مقاصده لاستغراق المفسر في الالفاظ، فضلا عن قلة الروايات التفسيرية؛ الامر الذي يدعو الى ضرورة مراجعة هذا المنهج بغية الانسجام والتطورات الزمانية والمكانية المعاصرة، والانفتاح على الادوات المعرفية الجديدة التي من شأنها تقديم رؤية صائبة وحقيقية للنص القرآني.

ثانياً: منهج التفسير العقلي.

المقصود من منهج التفسير العقلي - والذي يسمى أيضاً بالمنهج الاجتهادي - الاستفادة من القرائن العقلية الواضحة التي تكون مورد قبول جميع العقلاء، لفهم معاني الألفاظ والجمل، ومن جملتها القرآن والحديث، ولا ينصرف المراد من العقل والاجتهاد الى فرض الآراء والأذواق الشخصية[١٥].

وعرف أيضاً بالمنهج القائم على القواعد العقلية في شرح معاني القرآن، والتدبر في

مضامينه والتأمل في ملازمات بيانه[١٦].

ومن هنا فان ثمة شروط ينبغي توفرها لدى المفسر من أجل الاعتماد على المنهج العقلي وأهمها:

- قدرة المفسر على الاجتهاد في التفسير.
- الالتفات الى القرائن العقلية والنقلية (الروايات التفسيرية) قبل التدبر والتفكر والاستنباط.
- الاستفادة من البراهين العقلية القطعية كقرائن عقلية في التفسير.
- تجنب تحميل القرآن الآراء والنظريات التي لا تنطوي على أية مناسبة لفظية أو معنوية مع ظاهر الآيات القرآنية[١٧].

ما تجدر الاشارة اليه ان المفسرين يجمعون على ان المنهج العقلي يشمل منهج التفسير بالرأي، والمنهج الفلسفي والكلامي والاصولي، ويستدلون على هذا الخليط المنهجي بالفخر الرازي في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) بصفته أحد أصحاب الاتجاه العقلي، إذ مزج في تفسيره بين المنهج الكلامي الجدلي والمنهج الفلسفي والمنهج الاصولي اللغوي[١٨].

ويبدو للباحثة ان من شأن هذا المنهج تحقيق وظيفة التفسير، سيما ان ضم الى معطيات العقل، ما ورد من خزين روائي معتبر بخصوص تفسير آيات القرآن، بعبارة اخرى يبدو هذا المنهج الانجح ــ مقارنة بسابقه أي المنهج النقلي في التفسير - في كشف معاني ومضامين القرآن إن عضد بالنقل.

ثالثاً: منهج التفسير الاشاري.

ظهر هذا المنهج على خلفية الضعف الذي اصيبت به الاتجاهات العقلية والنقلية، واستبعاد تفنين العقل ودوره في الجهد التفسيري، فتوجه بعض المفسرين الى الباطن وتجلياته لتدارك النقص والضعف الذي طال المنهجين المذكورين[١٩].

يطلق التفسير الاشاري على الاشارات الخفية الموجودة في آيات القرآن، والتي تعتمد على العبور من ظواهر القرآن الى الأخذ بالباطن مع مراعاة القرينة، أي استخراج وفهم

وتوضيح جانب من الآية، لا يوجد في ظاهرها إلا عن طريق دلالة الاشارة، أي ان الاشارة هي الدلالة الإلتزامية للكلام(٢٠).

ويطلق على هذا المنهج العديد من الاسماء من قبيل: منهج التفسير الرمزي والعرفاني والصوفي والباطني والشهودي، وان جذور هذا المنهج توجد في كلام النبي محمد ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، منها ما ورد عن الامام الصادق عليه السلام انه قال " كتاب الله على أربعة أشياء على العبارة والاشارة واللطائف والحقائق " فالعبارة للعوام، والاشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء عليهم السلام(٢١).

فقد ذهب أصحاب هذا المنهج في تعاملهم مع النص القرآني الى ان المعنى لا يوجد في النص بل خارجه، المعنى يستشعر به الانسان في قلبه وباطنه، وفي الطبيعة والمجتمع، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾(٢٢)، ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٢٣)، فاللغة عاجزة عن التوصيل، ولا يمكن للغة والعلوم المتصلة بها كالنحو والصرف والبلاغة ان تكشف الغطاء عن وجه المعاني، بل الحل يكمن في التصفية والتخلية والتحلية التي تؤدي الى المشاهدة والمكاشفة والعرفان(٢٤).

ما تجدر الإشارة إليه ان المفسرين يشترطون في منهج التفسير الاشاري بعض الضوابط والمعايير التي تحول دون انزلاقه الى منهج التفسير بالرأي المذموم، أو التفسير الباطني الذي يتجاوز حجبه ظواهر الآيات القرآنية، وأهم تلك الضوابط:

١- الالتفات الى ظاهر الآية وباطنها في آن واحد.

٢- رعاية المناسبة القريبة بين ظاهر الكلام وباطنه.

٣- مراعاة النظم والدقة في إلغاء الخصوصية حتى يمكن انتزاع المفهوم العام من الكلام، على غرار (تنقيح المناط) الذي يستفيد منه الفقهاء في الحصول على الملاك القطعي للأحكام الشرعية في علم اصول الفقه.

٤- عدم منافاة منهج التفسير الاشاري للأدلة القطعية والآيات المحكمة في القرآن.

٥- الاستفادة من القرائن المعتبرة العقلية والنقلية (الآيات والروايات) أي أن يستفيد

منهج التفسير الاشاري من منهج التفسير العقلي الاجتهادي أو من منهج التفسير النقلي الروائي للحصول على بطن الآية ومعناها.

٦- استخراج مفهوم عام وقاعدة كلية من الآية، بحيث تكون الآية أحد مصاديق هذا المفهوم[٢٥].

ومن هنا يبدو للباحثة ان منهج التفسير الاشاري استناداً للضوابط التي يستند عليها سيكون المنهج الأقدر من المنهجين السابقين على بيان عمق المعاني القرآنية والكشف عن مقاصدها، وهذا ما سنتعرف عليه في المبحث القادم من خلال التطرق الى وظيفة كل منهج من المناهج التفسيرية.

ونخلص مما تقدم الى ان أبرز المناهج التفسيرية التي من شأنها الوصول الى معاني الآيات القرآنية والكشف عن مضامينها ومقاصدها، تتمثل في: منهج التفسير النقلي (الروائي) ومنهج التفسير العقلي ومنهج التفسير الاشاري، ولكل من منهج هذه المناهج وظيفته في الجهد التفسيري.

وان منهج التفسير الاشاري إذا ما تمت فيه مراعاة ضوابط التفسير الصحيح سيكون الاقدر على تحقيق أهداف التفسير.

المبحث الثاني

وظائف المنهج في معرفة مقاصد القرآن

سنحاول في هذا المبحث التعرف على المقاصد القرآنية وعلاقتها بالتفسير، ومن ثم نتطرق إلى الوظائف التي يؤديها كل من هذه المناهج، وفي مقدمتها الوظيفة الاساسية في إكتناه هذه المقاصد، وذلك كما يلي:

المطلب الأول

التفسير ومقاصد القرآن

مضى سابقاً ان منهج التفسير الاشاري يكاد يكون الانجح والاقدر من سائر مناهج التفسير في سبر غور معاني القرآن الكريم والكشف عن مضامينه ومقاصده، اذ يقول أحد

المفسرين من أرباب هذا المنهج بخصوص القرآن الكريم (ان هذا الكتاب الشريف، كما صرح هو كتاب هداية، وموجه سلوك الانسانية، ومربي النفوس، وكتاب شفاء الامراض القلبية، ومنير طريق السير الى الله تعالى).

ويضيف بان القرآن تنزل من مقام القرب الى هذه الدنيا متعيناً بكسوة الالفاظ ليتحرر الانسان من أغلال الطبيعة وأسرها، ويرفعه من حضيض النقص والضعف والحيوانية، الى أوج الكمال والانسانية، ويدفع به صوب مقام القرب ولقاء الله... فهو كتاب سير وسلوك[٢٦].

وتأسيساً على ما تقدم فان القرآن يختزن في ثناياه العديد من المقاصد التي ينبغي للمنهج التفسيري التركيز عليها واكتناهها بغية تحقيق الهدف من التفسير، أما أهم هذه المقاصد كما وردت عند المفسرين فيمكن ايجازها في ما يلي:

١- معرفة الله التي تقود الى توحيد الذات والاسماء والافعال الذي يمثل المقصد الأسمى لكتاب الله[٢٧].

٢- الدعوة الى تزكية وتهذيب النفوس وتطهير الباطن، والتي تشير جميعها الى مقصد قرآني آخر يتمثل في كيفية السير والسلوك الى الله تبارك وتعالى.

وينقسم هذا المقصد بدوره الى فرعين مهمين:

أ - التقوى بجميع مراتبها المندرجة فيه، التقوى عن غير الحق والاعراض المطلق عما سوى الله.

ب - الإيمان بتمام مراتبه وشؤونه المندرجة فيه، مما يقضي الى الاقبال على الحق والرجوع الى تلك الذات المقدسة والانابة اليها[٢٨].

٣- المقصد الآخر من المقاصد القرآنية مقصد الترغيب والترهيب من خلال (قصص الانبياء والاولياء) الى جانب (قصص الكفار والطغاة) التي تختزن من المعارف والتعاليم ما يبهر العقول، ويدعو اربابها الى الاعتبار، ومن ثم إرشاد الانسان الى التعرف على أحوال السالكين والناكثين[٢٩].

٤- المعارف المتعلقة بالإنسان بعد الدنيا، أي ذكر المعاد والبراهين لإثباته وكيفية العذاب والعقاب، والجزاء والثواب، وتفاصيل الجنة والنار، ويختزن هذا المقصد بيان حالات أهل السعادة ودرجاتهم من أهل المعرفة والمقربين، الى جانب حالات أهل الشقاء ودركاتهم من الكفار والمنافقين والجاحدين[٣٠].

٥- بيان كيفية الاحتجاجات والادلة والبراهين التي تثبت الاسس والمبادئ القرآنية من قبيل اثبات: التوحيد والتنزيه والعلم والقدرة، واثبات المعاد والنشأة الاخرى.

ونخلص مما تقدم ان أبرز المقاصد القرآنية التي ينبغي لمنهج التفسير كشفها تتمثل في معرفة الحق تبارك وتعالى (التوحيد) والمعاد ومعرفة كيفية السلوك الى الله من أجل الفوز بقربه ورضوانه، والانفتاح على الاسرار الكامنة في قصص الانبياء والاولياء، الى جانب قصص الكفار والجاحدين، فضلاً عن التعرف على أساليب الاحتجاج وطرق الاستدلال القرآنية في اثبات اصول الدين.

وعلى هذا الاساس فان مدى قدرة المنهج التفسيري على كشف هذه المقاصد ستكون هي المعيار في جدية وصوابية هذا المنهج أو ذاك، وبخلافه يبدو من الصعب تسميته بالمنهج التفسيري.

المطلب الثاني

وظائف المنهج التفسيري

لم ترد في القرآن الكريم مفردة (المنهج) بينما وردت مفردة (المنهاج) كقوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٣١] التي تفيد معنى الطريقة الواضحة.

كما أشارت العديد من الآيات القرآنية الى المفاهيم التي تمثل الاسس الرئيسية للمنهج، سواء المفاهيم السلبية من قبيل ذم التقليد[٣٢] واتباع الظن[٣٣] واتباع الهوى[٣٤] وتحريف الكلم عن مواضعه[٣٥] والتصرف في القول على نحو تبديله[٣٦]، أو المفاهيم الايجابية كاعتماد الموضوعية[٣٧] والامانة العلمية[٣٨] وتحري الدليل والبرهان[٣٩] فضلاً عن النقد البناء[٤٠].

واستنادا الى ذلك يعتقد أحد الباحثين المعاصرين[٤١] بان المنهج التفسيري الذي من شأنه الكشف عن مقاصد القرآن وإماطة اللثام عن عمق معانيه ينبغي أن يحل جملة من

القضايا الأساسية وأهمها:

أولاً: ضرورة تكوين مفهوم متكامل عن الانسان من وجهة نظر الدين والعقل، يؤخذ فيه بنظر الاعتبار ان الانسان خليفة الله في الارض، هدفه اعمار الارض وبناء الذات الانسانية.

ثانياً: تقنين دور العقل الانساني ومدى قدرته على معرفة المعاني والحقائق والمفاهيم والمعارف.

ثالثاً: تحديد العلاقة المتبادلة بين الوحي والعقل، ودائرة اختصاص كل منهما.

رابعاً: تحديد صلة الكتاب - القرآن - بالسنة وصلاتهما معاً بالعقل.

خامساً: تحديد نقطة الانطلاق في الجهد التفسيري من اللفظ الى المعنى، أم من المعنى الى اللفظ، أم صيغة مشتركة، أي منهما معاً الى كشف المجهول والوصول الى الحقيقة.

إذا استطاع المنهج حل هذه القضايا فسيكون الاطار الذي يعين المفسر على الكشف عن مقصد القرآن وبيان دلالته وإظهار معناه، على أساس ان القرآن الكريم كلام له معنى ودلالة فضلاً عن هدف ومقصد.

وعوداً على الوظيفة التي يؤديها كل منهج من مناهج التفسير، فان الوظيفة الاصلية للمنهج النقلي بحسب طبيعة هذا المنهج، هي القيام بعملية التفسير على ضوء الروايات والآيات القرآنية ذات العلاقة، أي ان أصحاب هذا المنهج انما يمارسون في الواقع وظيفتين من وظائف المنهج، الاولى تتمثل في تكوين الفهم البعدي من الروايات بحسب التكوين الخاص للمفسر وقدراته المعرفية ومستويات النضج النظري والذهني للمفسر، والثانية الشرح والتبيين من خلال الوصف والأمثلة والمقارنة، وهي الشروح التي تتخذ طابعاً لفظياً، ولا تقترب من دائرة المعاني والمقاصد(٤٢).

ومن هنا يصعب على هذا المنهج تحقيق الهدف من الجهد التفسيري، ذلك لان اللغة واللفظ - بحسب أنصار المنهج الاشاري - عاجزة عن فهم حقائق المعاني، كما انها من علوم القشر الذي لا ينال إلا القشور، كون اللغة لا تختزن سوى طاقة محدودة مهما اتسعت، وان

كانت في حدها ضرورة لا مناص منها في التفسير، غير انها لا تقدم سوى أوائل الفهم[٤٣].

وتأسيساً على ما تقدم يبدو من الصعوبة بمكان التعامل مع المنهج النقلي كمنهج من مناهج التفسير، لا سيما في ظل استغراقه في ظاهر الالفاظ و الاعتماد على الروايات بغض النظر عن ضعفها أو عدم تواترها، فضلاً عن تناقضها مع النص القرآني، اذ يكاد يجمع المفسرون على كثرة الروايات الموضوعة في التفاسير النقلية، فضلاً عن قلة الروايات الواردة في التفسير.

ومن هنا يذهب أصحاب المنهج العقلي الى ضرورة اعتماد العقل في التفسير بغية التوصل الى المقاصد، فالروايات التفسيرية غير كافية ولا تغطي جميع آيات القرآن... وحصر التفسير بالروايات انما يعني تعطيل كثير من الآيات، الامر الذي يتنافى ومقصد الهداية في القرآن، ولا يوجد سوى طريق آخر هو التفكير وأعمال العقل والاجتهاد في هذه الآيات[٤٤].

وان أحد أدوار العقل في المنهج الاجتهادي للتفسير يكمن في معالجة التناقض في ظواهر الآيات القرآنية، مثال ذلك ما اصطلح عليه بآيات التجسيم، من قبيل ما ورد في الآية الشريفة ﴿...يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٤٥] إذ يقول العقل بكل بساطة بان المراد من اليد في الآية الشريفة القدرة والقوة والمنعة.

وتأسيساً على ذلك فان العقل في هذا المنهج يلعب دور الاداة والوسيلة، وهو دور مكمل لسائر المصادر، فهو تجسيد للتدبر والتفكر والتأمل في الآيات القرآنية، بهدف بلوغ المقصود من خلال التقصي والاستدلال في التعامل مع الظاهر القرآني[٤٦].

وصفوة القول ان المنهج العقلي يؤدي بمفرده العديد من الوظائف في مجال التفسير، غير انه يبدو أكثر قدرة وفاعلية في كشف المقصد القرآني اذا ما ضم اليه سائر المناهج بما فيها المنهج الروائي.

أما المنهج التفسيري الأخير الذي ذكرنا انه الاقدر على كشف معاني القرآن ومقاصده هو المنهج الاشاري.

يبدو للباحثة نجاعة هذا المنهج من خلال ما يقوم به من مزاوجة بين النقل والعقل، فضلاً عن التعامل العرفاني في تفسير النص القرآني، الذي لا يمكن الوقوف على كنهه ومعرفة مقاصده ما لم يشتمل على فضيلة الطهارة والتزكية ونقاء الباطن وتهذيب النفس.

يؤيد ذلك ما ورد عن بعض المفسرين، ومنهم الزركشي الذي يقول بهذا الخصوص "أصل الوقوف على معاني القرآن التدبر والتفكر، وانه لا يحصل للناظر معاني الوحي حقيقة ولا يظهر له اسرار العلم من غيب المعرفة، وفي قلبه بدعة أو اصرار على ذنب، أو في قلبه بدعة كبر أو هوى أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الايمان، أو ضعيف التحقق أو معتمداً على قول مفسر ليس عنده علم الا بظاهر أو يكون راجعاً الى معقوله، هذه كلها حجب وموانع تحول دون فهم مقصد القرآن"(٤٧).

وقال مفسر آخر أيضاً " اذا ما أراد الانسان أن يستفيد من معارف القرآن، وينتفع من المواعظ الربانية، ينبغي له أن يطهر القلب من هذه الارجاس، ويدفع عنه لوث المعاصي القلبية المتمثلة بالاشتغال بغيره سبحانه، لان غير المطهر لا يؤتمن على هذه الأسرار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾(٤٨)، فإذا خلى القلب من الأوساخ صار مهيئاً لذكر الله وقراءة كتاب الله(٤٩).

إن أهم وظيفة ينطوي عليها هذا المنهج تتمثل في رفض المنهجية الاحادية في التفسير، كأن تكون هذه المنهجية نقلية بحيث يسقط المفسر ما لديه من روايات على التفسير، أو عقلية تسوق المفسر الى المجادلات الكلامية أو صوفية باطنة تحمل النص القرآني ما لا يحتمله.

قال صاحب تفسير الميزان بهذا الخصوص ان صاحب كل اختصاص ومنهج لون التفسير بمنهجه وإختصاصه وأسقط عليه اهتمامه ونزعاته... فالمتكلم اهتم بالمباحث الكلامية، والصوفي - العارف - غاص في المباحث الصوفية، والآخر ملأ التفسير بالأحاديث...(٥٠).

وعلى هذا الاساس تعتقد الباحثة بان المنهج الاشاري الذي يجمع بين النقل والعقل والتوجه العرفاني الذي يستند الى تزكية النفس وتطهير الباطن من شأنه أن يكون منهجاً شاملاً يستطيع الغوص في معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها.

وان من أبرز مقومات هذا المنهج، انه يقترح ثلاثة طرق لتحري مقاصد القرآن ينبغي أن يعتمد عليها:

أولاً: البحث الفعلي والممارسة البرهانية.

ثانياً: العودة الى القرآن واستنطاقه انطلاقاً من تهذيب النفس وتزكيتها.

ثالثاً: رفض المنهجية الاحادية في تفسير النصوص القرآنية[٥١].

والذي نخلص اليه مما تقدم ان لكل منهج من المناهج التفسيرية أدوار ووظائف يؤديها في الكشف عن مقاصد القرآن، وان المنهج الأقرب في تحقيق الهدف، هو المنهج الاشاري الذي يتبنى ضم المنهج النقلي والعقلي، الى ادواته المعرفية التي تنطلق من ضرورة تحلي المفسر بالعديد من الصفات الأخلاقية، من قبيل الطهارة الباطنية، والاخلاص ومجانبة الهوى وحب الدنيا وحب الذات.

الخاتمة:

يحظى القرآن الكريم بأهمية عظيمة لدى المسلمين على خلفية ما تضمنه من موضوعات ذات صلة بحياة الانسان في الدنيا والاخرة، الامر الذي جعل المفسرين يتناولون تلك الموضوعات بالشرح والتوضيح، وألزمهم بفهم مضامينه من خلال الاعتماد على منهج رصين من شأنه بلوغ مقاصد القران وعمق معانيه، وهذا بدوره يتطلب الاحاطة بحيثيات المنهج والتفسير بغية تحقيق الغايات القرآنية.

ومن هنا تم في هذا البحث تسليط الضوء على المنهج بصورة عامة، الى جانب التطرق الى وظائف منهج التفسير، وأبرزها في التعامل مع القرآن.

وعليه فقد توصل البحث الى عدد من الاستنتاجات أهمها ما يلي:

١- أن أهمية المنهج التفسيري تتجلى من خلال اعتماد المفسر عليه كوسيلة معرفية تمكنه من الوقوف على المعاني والمقاصد القرآنية.

٢- لا يبدو منهج التفسير النقلي عمليا في بيان معاني القرآن والكشف عن المقاصد القرآنية، لعدة أسباب أدناها الاقتصار في التفسير على الروايات التفسيرية التي لا تغطي سوى مساحة متواضعة من الآيات القرآنية.

٣- يمكن لمنهج التفسير العقلي التوصل الى الكشف عن مقاصد القرآن اذا ضم اليه المنهج النقلي.

٤- اذا التزم منهج التفسير الاشاري بالضوابط التي أقرتها الشريعة، واعتمد المفسر على طهارة الباطن وتزكية النفس، والتفت الى الروايات التفسيرية وضم اليها

العقل والاجتهاد، فسيكون المنهج الاقدر على تحقيق الغاية من التفسير والتي تتمثل في سبر غور معاني القرآن والكشف عن مقاصده.

٥- التوحيد من أهم المقاصد القرآنية التي ينبغي على منهج التفسير التوصل اليه، الى جانب المقاصد الاخرى من قبيل البعث والمعاد والحساب.

هوامش البحث

(١) علي جواد الطاهر: منهج البحث الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٤، ١٩٨٨، ص١٩.

(٢) محمد قاسم محمد: المدخل الى مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص٥٢.

(٣) ينظر عادل خوري: العقيدة الاسلامية في لقاء مع الاسلام، المكتبة البوليسية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص٧٤.

(٤) حبيب فياض، مقاربات في فهم الدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص١٨ - ١٩

(٥) محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٣٩١، ج١، ص٤

(٦) مجموعة من الباحثين: دراسات في تفسير النص القرآني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ج١، ص١٤٣

(٧) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين في الحديث، دار الفكر بيروت، ط١، ١٩٧٨، ج١، ص٨٠.

(٨) محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ، ج١، ص٤ وينظر: ايضاً روح الله الخميني: تفسير سورة الحمد، دار الكتاب العربي، بيوت، ط١، ١٩٩٦

(٩) محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج٣، ص٧٦

(١٠) سورة النحل: الآية ٤٤

(١١) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، دار العارف للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص١٤

(١٢) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: المقدمة، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص٦٨

(١٣) محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ج١، ص٤.

(١٤) محمد هادي معرفة: التفسير والمفسرون في، الجامعة الرضوية للعلوم الاسلامية، قم، ط١، ١٩٩٢، ج٢، ص٢١

(١٥) ناصر مكارم الشيرازي: التفسير بالرأي، دار الافق للطباعة والنشر، قم، ط١، ١٩٩٨، ص٣٨.

(١٦) محمد علي ايازي: المفسرون حياتهم ومنهجهم، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص٤٠

(١٧) عباس عميد زنجاني: مناهج تفسير القرآن، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص٧٨

(١٨) ينظر مجموعة من الباحثين: دراسات في تفسير النص القرآني، مصدر سابق، ص١٥٦.

(١٩) خالد عبد الرحمن: اصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤١٤، ص٢٠٥.

(٢٠) محمد باقر المجلسي: بحار الانوار، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ج٩٢، ص٢٠.

(٢١) المصدر نفسه، ج٨٦ ص٢٣.

(٢٢) سورة الذاريات: الآية ٢٠.

(٢٣) سورة الذاريات: الآية ٢١

(٢٤) ابو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ج١، ص٨٤

(٢٥) ينظر محمد هادي معرفة: التفسير والمفسرون، مصدر سابق، ج٢، ص٤٢٨ - ٤٣٨

(٢٦) روح الله الخميني: الآداب المعنوية للصلاة، دار نشر آثار الامام الخميني، قم، ط١، ١٩٨٨، ص١٩١

(٢٧) محمد بن محمد الغزالي: جواهر القرآن، دار المعرفة، بيروت ط١، ١٩٩٢، ص١٠

(٢٨) روح الله الخميني: الآداب المعنوية للصلاة، مصدر سابق، ص١٨٦

(٢٩) ينظر ابو حامد الغزالي: جواهر القرآن، مصدر سابق، ص١٤، ينظر جواد علي كسار: فهم القرآن / دراسة شاملة في رؤى الامام الخميني المنهجية في فهم وتفسير القرآن، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ج١، ص١١٢

(٣٠) محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القران، مصدر سابق، ج٧ ص٨٢

(٣١) سورة المائدة: الآية ٤٨

(٣٢) سورة البقرة: الآية ١٧٠

(٣٣) سورة الأنعام: الآية ١٦

(٣٤) سورة الانعام: الآية ١١٩

(٣٥) سورة النساء: الآية ٤٦

(٣٦) سورة البقرة: الآية ١٦١

(٣٧) سورة النساء: الآية ١٣٥

(٣٨) سورة النساء: الآية ٥٨

(٣٩) سورة البقرة: الآية ١١١

(٤٠) سورة البقرة: الآية ١٧٠

(٤١) ينظر محمد مصطفوي: دور المنهج في عملية التفسير، مجلة المنهاج، العدد ٣٤، بيروت، ٢٠٠٨، ص٥٢

(٤٢) ينظر محمد مصطفوي: أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص٥٧ - ٥٨

(٤٣) ينظر عبد الله آملي: المنهج التفسيري للعلامة الطباطبائي، ترجمة: جواد علي كسار، مؤسسة الثقلين الثقافية، قم، ط١، ١٩٩٢، ص٢١ - ٢٣

(٤٤) ينظر محمد علي الأصفهاني: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، تعريب: قاسم البيضاني، المركز الصالحي للدراسات الاسلامية، قم، ط١، ١٤٢٦هـ، ص١٢٧

(٤٥) سورة الفتح: الآية ١٠

(٤٦) ينظر محمود رجبي: بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم، ترجمة حسين صافي مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، ب بدر الدين محمد بن محمد: البرهان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، ج٢، ص١٠٨

(٤٧) بدر الدين محمد بن محمد: البرهان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، ج٢، ص١٠٨

(٤٨) سورة الواقعة: الآية ٧٧ - ٧٨

(٤٩) روح الله الخميني: سر الصلاة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص٧٨

(٥٠) ينظر محمد حسين الطباطبائي: القرآن في الاسلام، ترجمة: أحمد الحسيني، مركز الاعلام، سبهر، طهران، ١٤٠٤، ص٧١ - ٧٢

(٥١) ينظر حبيب فياض: مقاربات في فهم الدين، مصدر سابق، ص١٣.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية

القرآن الكريم

١- جواد علي كسار: فهم القرآن / دراسة شاملة في رؤى الامام الخميني المنهجية في فهم وتفسير القرآن، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

٢- حبيب فياض، مقاربات في فهم الدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

٣- خالد عبد الرحمن: اصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤١٤، ص٢٠٥ بدر الدين محمد بن محمد: البرهان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٤- روح الله الخميني: الآداب المعنوية للصلاة، دار نشر آثار الامام الخميني، قم، ط١، ١٩٨٨.

٥- روح الله الخميني: تفسير سورة الحمد، دار الكتاب العربي، بيوت، ط١، ١٩٩٦

٦- روح الله الخميني: سر الصلاة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦.

٧- عادل خوري: العقيدة الاسلامية في لقاء مع الاسلام، المكتبة البوليسية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

٨- عباس عميد زنجاني: مناهج تفسير القرآن، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

٩- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: المقدمة، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٤.

١٠- علي جواد الطاهر: منهج البحث الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٤.

١١- مجموعة من الباحثين: دراسات في تفسير النص القرآني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي بيروت، ط١، ٢٠٠٧.

١٢- محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، دار العارف للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

١٣- محمد باقر المجلسي: بحار الانوار، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.

١٤- محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.

١٥- محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

١٦- محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٣٩١.

١٧- محمد قاسم محمد: المدخل الى مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

١٨- محمد علي ايازي: المفسرون حياتهم ومنهجهم، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

١٩- ابو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٨٢.

٢٠- محمد بن محمد الغزالي: جواهر القرآن، دار المعرفة، بيروت ط١، ١٩٩٢.

٢١- محمد مصطفوي: أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

٢٢- محمد هادي معرفة: التفسير والمفسرون في، الجامعة الرضوية للعلوم الاسلامية، قم، ط١، ١٩٩٢.

٢٣- ناصر مكارم الشيرازي: التفسير بالرأي، دار الافق للطباعة والنشر، قم، ط١، ١٩٩٨.

ثانيا: المصادر المعربة

١- عبد الله آملي: المنهج التفسيري للعلامة الطباطبائي، ترجمة: جواد علي كسار، مؤسسة الثقلين الثقافية، قم، ط١، ١٩٩٢.

٢- محمد حسين الطباطبائي: القرآن في الاسلام، ترجمة: أحمد الحسيني، مركز الاعلام، سبهر، طهران، ١٤٠٤.

٣- محمد علي الأصفهاني: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، تعريب: قاسم البيضاني، المركز الصالحي للدراسات الاسلامية، قم، ط١، ١٤٢٦هـ.

ثالثا: الدوريات

١- محمد مصطفوي: دور المنهج في عملية التفسير، مجلة المنهاج، العدد ٣٤، بيروت، ٢٠٠٨.

٢- محمود رجبي: بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم، ترجمة حسين صافي مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٠.